

مظاهر الخرافة في المجتمع العربي: دراسة في روايات غادة السمان* نموذجاً

حجت رسولي^١، سميه آفاجاني يزدآبادي^٢

الملخص

تهدف هذه الدراسة إلى رصد مظاهر الخرافة في روايات غادة السمان، وتلمّس بعض أسباب هذه الظاهرة التي تمثل العقليّة المتخلّفة لأبناء الشعوب العربيّة. وتخضع روايات غادة السمان للبحث بأكملها وهي: بيروت ٧٥، وكوابيس بيروت، وليلة المليار، والرواية المستحيلة - فسيفساء دمشقية -، وسهرة تنكّرية للموتى. وتمّ تقسيم الدراسة إلى قسمين وهما: الخرافة والظروف القهرية والخرافة والظروف غير القهرية. فقد وصلنا إلى أن غادة السمان تحاول في نصوصها الروائية أن ترسم مكانة الخرافة في الطبقتين الدنيا والعليا من المجتمع العربي، فتكشف الكاتبة لنا مركزية التفكير الخرافي في حياة الإنسان العربي، حيث تسجل الخرافة حضورها الواسع في العقل العربي المعاصر في مختلف شرائحه الاجتماعيّة بين العامة والخاصة كما بين النخبة والجماهير.

الكلمات الرئيسية: الخرافة، الرواية العربية، المجتمع العربي، غادة السمان.

* كاتبة وشاعرة سورية شهيرة من مواليد ١٩٤٢، لها حوالي خمس وأربعون مؤلفاً في الرواية والقصة القصيرة والشعر، فهي التي بدأت مشروعها النقابي منذ بدايات ستينيات القرن العشرين لا تزال تكتب الأدب دفاعاً عن حرية الإنسان العربي الاجتماعيّة والسياسية.

١. استاذ مشارك في جامعة شهيد بهشتي بطهران - قسم اللغة العربيّة و آدابها.

٢. طالبة الدكتوراه في قسم اللغة العربيّة و آدابها بجامعة دمشق.

تاريخ استلام البحث: ٨٨/٨/٢٤ تاريخ قبول البحث: ٩٠/٣/٢٥

المقدمة

يتفق العلماء أن الخرافة هي الأفكار والممارسات والعادات التي لا تستند إلى أي تبرير عقلي ولا تخضع لأي مفهوم علمي سواء من حيث النظرية أو التطبيق (عيسوي، ١٩٨٢/١٩٨٣، ص١٤، بتصرف) والتفكير الخرافي فهو " التفكير الذي يقوم على إنكار العلم ورفض مناهجه، أو يلجأ - في عصر العلم - إلى أساليب سابقة على هذا العصر" (زكريا، ١٩٩٦، ص ٥٩).

إن الفكر الخرافي ظل يعايش العلم فترة طويلة، ومازال يمارس تأثيره على عقول الناس حتى يومنا هذا. فإن مظاهر الخرافة في مجتمع ما، تتحدد بمستوى التقدم الحضاري بمفهومه الواسع ثقافياً واقتصادياً وعلمياً، وهي بذلك تعبير سلبي عن مقدار هذا الرقي. (بدران والخماش، ١٩٨٨، ص١٤، بتصرف) وبما أن الخرافة تسجل حضورها الواسع في العقل العربي المعاصر في مختلف شرائحه الاجتماعية بين العامة والخاصة كما بين النخبة والجماهير، (وظفة، ٢٠٠٧، ص١٦٩، بتصرف) فيمكننا أن نرى من خلالها مدى تخلف هذه المجتمعات؛ ذلك أن الخرافة سلاح من أسلحة التخلف.

من هذا المنطلق يتحدد الدور البارز للكتاب وللمثقفين العرب، الذين يقدرون على توعية الشعب العربي الذي يملك الذهنية الخرافية بحكم ظروفه القهرية التي يعيش فيها وتأثير الموارث الفكرية والثقافية التي ورثها عن أسلافه. على هذا الأساس اهتمت غادة السمان في رواياتها بفضح الممارسات والاعتقادات الخرافية في المجتمع العربي حتى تنقد الظروف والأسباب التي تكمن وراء لجوء الإنسان العربي إلى الخرافة.

إن النقاد في العالم العربي لم يهتموا اهتماماً بارزاً بموضوع الخرافة وانعكاسها في الرواية عامة، وفي روايات غادة السمان خاصة؛ لذا ترمي الدراسة إلى معالجة هذا الموضوع في روايات غادة السمان لتتوقف عند إحدى المعوقات الرئيسة التي تعترض في سبيل تقدم الإنسان العربي من جهة، ولتجيب إلى الأسئلة الآتية من جهة أخرى: هل تلجأ شريحة محددة من المجتمع العربي إلى الممارسات الخرافية في روايات غادة السمان؟ ما هي الأسباب التي تكمن وراء السلوك الخرافي للشخصيات الروائية؟ وهل تكفي الكاتبة بإدانة ممارسات الفرد العربي الخرافية، أم إنها توجه نقدها إلى الأسباب والظروف التي تدفعه إلى التفكير الخرافي؟

وبما أن غادة السمان ألفت الأضواء في رواياتها على الأسباب التي تكمن وراء ممارسات الإنسان العربي الخرافية، تحاول هذه الدراسة تلمّس هذه الأسباب وتناولها عبر تقسيم البحث إلى قسمين: أ- الخرافة والظروف القهرية. ب- الخرافة والظروف غير القهرية.

أ- الخرافة والظروف القهرية

تظهر غادة السمان في رواياتها العلاقة بين القهر والسلوك والتفكير الخرافي، حيث تحاول الشخصية المقهورة أن تسيطر على مصيرها وواقعها من خلال اللجوء إلى الحلول الخرافية. إن القهر المادي والاجتماعي هما أبرز نماذج القهر الذي يدفع الشخصيات الروائية إلى الاحتماء بالخرافة في روايات غادة السمان. ففي روايتها الأولى "بيروت ٧٥" يحاول "أبو مصطفى" الصياد أن يسيطر على فقره المدقع ومرضه من خلال الاحتماء بالحلم الخرافي المتمثل في "المصباح السحري":

"ثلاثون عاماً وهو يحلم بأن المصباح سيخرج ذات يوم من البحر ليعلق في شبابه .. سيكون عتيقاً وصدئاً لكنه سيعرفه .. سيدعكه ثلاث مرات فينتصب جني المصباح عموداً من دخان، مهيباً كالليل، ثم يركع بين يديه ويقول له: شبيك ليك عبدك بين يديك!.. وسيطلب أمنياته الصغيرة كلها: بيت نظيف. دخل معقول. رزق يكفي الأولاد ونفقات علاج رثته المصدورة" (السمان، ١٩٩٣، ص ٢٥).

هكذا يعيش المتلقي ذروة عجز الإنسان المسحوق الذي يحاول من خلال السيطرة الخرافية على معاناته أن يخفف آلامه ويدخل الاطمئنان الوهمي إلى نفسه. فـ " إذا عزّت السيطرة المادية على المصير، حاول المرء توسل الأوهام، يعلل بها النفس ويجمل بها الواقع، ويستعين بتصوراتها على تحمل أعبائه" (حجازي، ١٩٨٦، ص ١٤٥).

وعلى هذا النحو ترسم لنا الكاتبة الحيوية المؤقتة التي يُدخلها الاستغراق في الأوهام والأحلام الخرافية في نفسية الإنسان المسحوق، حيث نجد في العبارة التالية تأثير الحلم الخرافي على حياة "أبي مصطفى" المليئة بالفقر والعجز والمرض: "أحس بأن مفاصله ضعيفة لن تقوى على حمله، لكنه حين فكّر "بالمصباح السحري" وجد في نفسه قوة لم يكن يحلم بها.. إنه يتلئ قوة وتوقداً وشوقاً إلى لقاءه، ويسارع إلى البحر" (السمان، ١٩٩٣، ص ٢٥).

هكذا يصل الإنسان المقهور إلى شيء من التوازن الوجودي الضروري لاستمراره. فحين لا يستطيع الإنسان أن يتحمل القهر المادي ببساطة، فلا بد له من الوصول إلى حل ما يستوعب

مأساته وإلا تصبح الحياة مستحيلة. لذلك يلجأ أبو مصطفى إلى الحلول والأحلام الخرافية التي تحمل في ثناياها الثروة والجاه والصحة والسعادة الدائمة حتى يدخل شيئاً من الطمأنينة إلى نفسه والحيوية إلى حياته.

إن أزمة لقمة العيش لا تدفع الشخصيات المقهورة في روايات غادة السمان إلى الاحتماء بالحلول الخرافية فحسب، بل تدفعها إلى اختيار مهنة الشعوذة والسحر والتنجيم لإنقاذ حياتها من الفقر والبؤس. ففي رواية "كوايس بيروت" في كابوس ١٠٢ يكشف الراوي لنا الأسباب التي جعلت المرأة الكادحة تتحول من الخياطة إلى البصارة:

"جلست خاتون البصارة أمام كرتها الزجاجية، وصارت تحديق بها طويلاً بينما النسوة حاشعات في حضرتها.. فهي قد اعتادت التحديق في نقطة معينة منذ كانت تزاوّل عملها كخياطة ... إلا أن الزمن تبدل، والسيدات هجمن على دكاكين الثياب الجاهزة ... وقررت خاتون الخياطة أن تتحول إلى بصارة "وعالمة في ضرب الرمل وفك السحر والربطة تجلب لك الغائب وتنبأ لك عن الحاضر والمستقبل" كما ذكرت في إعلان اقترح عليها زوجها العاطل عن العمل نشره في إحدى الصحف مع عنوانها .. وكانت المفاجأة مذهلة " (السمان، ٢٠٠٠، ص ١٥٣).

فتظهر لنا الكاتبة في هذا الكابوس محاولة المرأة التي كسد سوق عملها وأصبح زوجها عاطلاً عن العمل لإنقاذ حياتها من خلال اختيار مهنة الشعوذة، حيث تستخدم الذهنية الخرافية للفرد العربي كأداة للارتزاق. هكذا تكشف غادة السمان لنا كيف يساهم القهر المادي في رواج تجارة السحر والتنجيم والشعوذة وتنمية التفكير الخرافي في المجتمعات المتخلفة. وتوسع الكاتبة هذه الفكرة في رواية "ليلة المليار" حيث يدفع الفقر والحرب الأهلية اللبنانية، الشاعر "وظفان" إلى التحول إلى الساحر "وظفان". فيتعرف المتلقي في هذه الرواية إلى طيّات قلب الساحر البائس الذي أرغمه الفقر والتشرّد على اللجوء إلى الكتب السحرية العميقة التي ورثها من آبائه. فيقول شيخ وطفان:

"منذ ثلاثة أعوام كنت لا أجد ما أسد به رمقي. وها أنا اليوم أنتقل من حرير إلى زمرّد إلى ماس إلى ثروة في البنك، ومن قصر إلى قصر إلى فندق له فخامة القصور. وكل ذلك لأنني ركعت لملك الجن أخيراً، وقبلت التحول من شاعر إلى ساحر" (السمان، ٢٠٠٢، ص ١٤١).

إذن تمبسط على الساحر "وظفان" الثروة والجاه بعد ما تخلى عن أحلامه الأدبية. إلا أنه لا يحس بالسعادة والفرح بعد إقامته في أرض الجان، فيبوح لنا عبر الحوار الداخلي في بضعة صفحات بيؤسه ووحدته في حياته الثرية في حنيف:

"الرحمة أيها الليل .. أيتها الرياح الآتية من دهاليز الماضي ... أشفقوا على شاعر اضطرته قسوة الحياة للعب دور الساحر، فاستغرق فيه ولم يعد واثقاً من قدرته على لقاء نفسه ... تلك الثروة التي جمعتها خلال عامين فقط، لم يعد في مقدوري أن أستمتع بها .. كأنني صرت حبيس المرأة .. ولم يبق أمامي غير التوغل في أرض الجان" (السمان، ٢٠٠٢، ص ١٥٠/١٥١).

على هذا النحو تنقد عادة السمان الظروف التي تجعل الإنسان يحتمي بالخرافة والحرف التي تنشر الخرافة. فالفهر المادي دفع "أبا مصطفى" الصياد إلى الأحلام والأوهام الخرافية، كما دفع الخياطة والشاعر إلى اختيار حرفة السحر والشعوذة كمخرج للخروج من أزمة لقمة العيش. إلا أن القهر المادي ليس السبب الوحيد وراء دفع الشخصيات الروائية لدى عادة السمان إلى اللجوء إلى الخرافة، فقهر الأنظمة الاجتماعية أيضاً، يساهم في استغراق الشخصيات في التفسيرات الخرافية وقبول الحلول الخرافية. فنجد في "الرواية المستحيلة - فسيفساء دمشقية -" انتشار الخرافة بشكل واسع بين الناس والنساء خاصة في المجتمع الدمشقي في عقد الخمسينات من القرن العشرين، حيث كان قمع الأنظمة الاجتماعية شديداً.

فإذا نعت بومة فوق أحد البيوت فإن السامع يعمه التشاؤم ويتصور أن أحداً ما من معارفه سوف يموت. فتقول "فلك" - نموذج المرأة التقليدية في الرواية - عن تشاؤمها من البومة: "كل مصائبنا من هذه البومة. ناحت ليلة ولدت هند أول مرة فأنجبت بنتاً، وناحت يوم ولادتها الثانية فقتلتها والصبيين. من المؤكد أنها ناحت ليلة ولدت ماوية هاني فنحسته وجاء "عطيلة" وركبه الجان. إنها وراء كل مصائب البيت" (السمان، ٢٠٠٤، ص ٤١).

ونجد في هذه الرواية شكلاً آخر من أشكال التأويل الخرافي لأحداث الحياة وهو الخوف من العين الحاسدة، حيث هناك خوف دائم من أذى يلحق بالإنسان إذا أصاب غنماً، أو رزق قسطاً من نعمة أو خير. فيما أن المرأة هي أكثر غنماً وعجزاً وقهراً في المجتمع العربي فإنها هي التي في غالب الأحيان تتوسل لدرء الحسد وسائل متنوعة إذا حظيت بخير أو جاه أو امتياز على الآخرين؛ فتلجأ إلى إخفاء نعمتها خشية عيون الحاسدين كما نرى في الحوار التالي:

"لماذا تطيل جارتكم دعد شعر ابنها الذي أنجبتته بعد طلاقها هكذا؟!... إنما تخاف عليه من العين إذا عرف الناس أنه صبي ومثل القمر.. نذرت أن ترضع ابنها وتتركه في ملابس البنات بشعر طويل سبعة أعوام حين كانت حاملاً به. ذهبت إلى "الولي" عسقلان في باب مصلى بالميدان ونذرت له ولغيره من الأولياء كي تنجب صبياً وتقهر ضربتها التي ولدت بنتاً" (السمان، ٢٠٠٤، ص ٥٥).

فانطلاقاً من أن إنجاب الصبي يعدّ من أهم مهمات المرأة في المجتمع الذكوري، فمن البديهي أن تخاف المرأة على إنجازها ونعمتها وبالتالي تقوم بإلباسه لباس البنات بغية إخفائه من الأذى والشر الذي تمثله العين الحاسدة. وإضافة إلى إخفاء النعمة، تتوسل المرأة إلى التعاويذ وكتابة الحجب خشية عيون الحاسدين التي تهدّد ما كسب من المال والثروة :

" هل تعرفين أنني كتبت حجاباً لأم محمد صائم الدهر الغنية ونصحتها بإلباس أولادها ثياباً مهترئة ليلة العيد لكي " تصرف النظرة" وتحميهم من العين" (السمان، المصدر نفسه).

ويجد المتلقي - في الحجب التي كتبتها "بوران" - المرأة التقليدية والخرافية في الرواية - العلاقة بين قهر المرأة العربية واحتمائها بالخرافة. فتكتب "بوران" حجاباً لـ "أبو نجيب" كي يكف عن السهر مع المغنية، فائلة: " لقد عقدت له ذكّره عن كل أنسية غير زوجته. جاءتني تبكي وحمّلت لي سلة من البيض ودجاجة كهدية وشكت لي همها، وبعد ذلك بأسابيع أصيب أبو نجيب بفتق محتنق ولم يعد بوسعه حياتها" (السمان، ٢٠٠٤، ص ٥٨).

وبما أن المرأة لا تستطيع أن تتغيّر واقعها المؤلم، تحاول أن تسيطر على مصيرها وواقعها من خلال اللجوء إلى التعاويذ والسحر وكتابة الحجب. يقول الدكتور مصطفى حجازي في هذا الموضوع: "من الطبيعي أن تلجأ النساء إلى مختلف أساليب الشعوذة لحل أزماقن الزوجية والعاطفية والجنسية، طالما سدت أمامهن كل سبل التأثير الفعلي في الواقع المفروض عليهن، وطالما استلبت منهن إرادة التحكم بالمصير" (حجازي، ١٩٨٦، ص ١٥٥).

على هذا الأساس تحاول المرأة من خلال كتابة الحجاب أن تسيطر على الأحداث المهمة في حياتها كالزواج والإنجاب، فتؤكد هذا الكلام الحجب التي كتبتها "بوران" للنساء:

"كتبتُ لها حجاباً وجاءها الخطّاب" (السمان، ٢٠٠٤، ص ٥٩).

"كبرت ولم يرزقها الله بأولاد، ولكنني "كتبتُ" لهما حرزاً وسأذهب خصيصاً لتبخير سريرهما ورحمهما... المرض من الجن والأرواح والعفراريت والشافي هو الله" (السمان، ٢٠٠٤، ص ٥٦).

نلمس شكلاً آخر من أشكال التأويل الخرافي للأحداث التي يستعصى تفسيرها على شخصيات "الرواية المستحيلة" -سيفساء دمشقية-". وهذا الشكل يتمثل في اعتبار الكائنات الخفية مثل الجن والعفاريت والشيطان السبب الرئيسي وراء الأحداث المستعصية على الفهم.

ونجد هذه التفسيرات الخرافية وراء سلوك "زين" التي تمثل طفولة الكاتبة ذاتها. فهي طفلة تعاني الاضطرابات النفسية بعدما فقدت أمها وحنانها في الخامسة من العمر. لذا تقول غالبية الشخصيات أن "زين" متلبسة وركبها عفريت قوي، وذلك بعد ما ترتكب أعمالاً مستعصية على التأويل. فتقول "بوران" عن "زين":

"عليها ثقل" كله شر وهي ترفض أن "أكسها". وحين أفعل وهي نائمة يكاد عفريتها القوي يخنقني. ضربت "المدلل" وعرفت من أين جاء. لحق بها عفريت أمها من اللاذقية وتلبسها" (السمان، ٢٠٠٤، ص ٥٥).

مما يسجل للكاتبة أنها تحاول أن تظهر الأسباب الحقيقية لسلوك "زين" من خلال التوغل في داخل شخصيتها، ثم تعرض التفسيرات والتعليقات الخرافية من قبل بقية الشخصيات الروائية تجاه سلوك "زين". فعلى سبيل المثال، تشرب زين - في مشهد من مشاهد الرواية - من الكأس الذي كانت نقوش زجاجه نسخة عن تلك التي كانت تسقيها بها أمها قبل النوم وهو ما لم يفعله أحد بعدها. تعضّ "زين" على الكأس بشدة. فيشير سلوك "زين" التفسيرات والتأويلات الخرافية للشخصيات الروائية على النحو التالي:

"انكسر الزجاج بين أسنانها وسال قليل من الدم من جرح صغير في فمها، فأسرعت أم سامي تسمي بالرحمن واقترحت إحضار جارهم الشيخ لتكبس زين لأن "عليها ثقل". أما زوجها فقرر أن يبتهم بحاجة إلى تبخير وذبح دجاجة سوداء أمام مدخله مع سكب الماء المغلي على العتبة. وأضاف قائلاً عن زين: الذنب ليس ذنبها بل ذنب الأسياد الذين يحاولون تملكها منذ وفاة أمها كما سمعت" (السمان، ٢٠٠٤، ص ١٣١).

تبرز هذه التفسيرات الخرافية ما تعجز عنه البيئات المتخلفة من تأويل علمي للاضطرابات النفسية والسلوكية، وتنفي مسؤولية الأسرة والمجتمع تجاهها. وتخبرنا عادة السمان عن تجاربها الشبيهة بـ "زين" في طفولتها، حين كانت الأسرة تكتب لها الحجب، قائلة: "حينما كنت صغيرة، وكانوا يكتبون لي حجاباً عند الساحر، كنت أفكه سرّاً لأتأمل الحروف والكتابات" (السمان، ٢٠٠٢، ص ١٠٢).

إن إلقاء المسؤولية على الجن والعفاريت تبرير سهل يساعد في ازدهار تجارة المشعوذين وكتاب الحجب والتعاويد. لذلك يرى المتلقي الإقبال الكبير على حجب "شيخة بوران" خلال الصفحات "الرواية المستحيلة - سيفساء دمشقية-" حيث يقول الراوي في العبارة التالية: "طار صيتها كشيخة تداوي وتقرأ الماضي والمستقبل وتحل وتربط مع المجهول وتجعل أمثال جهينة يرثون الثروات، حتى صار زبائن "عبادتها" أكثر بكثير من زبائن عبادة ابن شقيقها الدكتور مأمون" (السمان، ٢٠٠٤، ص ٤٠٨).

وتظهر الكاتبة في قصة "جهينة" - الخادمة التي رفضتها الأسرة الدمشقية العريقة كمعروس لها ولكن رجل الأسرة يقرر أن يمنحها بيته الكبير بسبب خلقها الطيب وسلوكها الإنساني تجاهه - استغلالية وانتهازية أمثال "بوران" الذين يدعون أنهم هم الذين يجلبون الحظ والخير للناس ويجعلون الخادמות يرثن الثروات.

على هذا النحو تنقد عادة السمان الظروف القهرية - الاقتصادية والاجتماعية - التي تجعل الإنسان المقهور يلجأ إلى الحلول الخرافية، الأمر الذي يسبب ازدهار سوق الساحرين والمنجمين وكتاب التعاويد والحجب والحرف الأخرى التي تساعد على نشر الخرافة. وهكذا "السيطرة الخرافية على المعاناة، تحتفظ في النهاية للنظام الاجتماعي الذي ولدها كل هيمنته وتبقي على رضوخ الأفراد المقهورين لهذه الهيمنة" (حجازي، ١٩٨٦، ص ١٥٦).

ب - الخرافة والظروف غير القهرية

تجسد عادة السمان في رواياتها - وفي "ليلة المليار" خاصة - المكانة الهامة التي يتمتع بها التفكير الخرافي في حياة الإنسان العربي الذي لم يعيش في الظروف القهرية الاقتصادية والاجتماعية. فإن الكاتبة لا تبحث في رواياتها عن وجود الخرافة في الظروف القهرية فحسب، بل تظهر سبباً آخر للجوء الإنسان العربي إلى الحلول السحرية والخرافية وهو ذهنيته الخرافية. فـ "الذهنية الخرافية هي تلك الذهنية التي تسيطر على الفرد والجماعة بحيث يكون للخرافة فيها مكان بارز سواء في نقل المعلومات أو تمثيلها، وفي تفسير الأحداث أو تعليلها" (بدران والخماش، ١٩٨٨، ص ١٣).

على هذا الأساس يلاحظ المتلقي في روايات عادة السمان أن الإنسان العربي الذي لا يعاني من القهر الاقتصادي والاجتماعي والذي يعيش في قلب الحضارة الإنسانية الحديثة يلجأ إلى الساحر والمنجم والمشعوذ بسبب ذهنيته الخرافية التي يحمله معه أينما يذهب.

يريز السحر في رواية "ليلة المليار" عنصراً من عناصر حياة الإنسان العربي، فتعكس هذه الرواية تعلق الفكر العربي بالغيبيات منذ القدم، وتحدد مستوى الوعي الإنساني للشعب العربي الذي مازال يتمسك بالأساطير. (الأرناؤوط، ١٩٩٣، ص ٩١، بتصرف) يعبر "نسيم" - خادم رغيد زهران الثري الساكن في جنيف - عن اندهائه لاحتماء أثرياء العرب ورجال السياسة بالخرافة والسحر في زمن احتلال فلسطين ولبنان، قائلاً:

"لم أكن أصدق أن في زمننا من يلجأ إلى السحرة، ولو لم أر زبائن الشيخ وطفان من الأقوياء والأثرياء وحتى بعض زعماء السياسيين من الاتجاهات كلها، لما صدقت أن هذا الهذر ما يزال يدور في زمن احتلال لبنان بعد فلسطين.. ولحظة فجر أخي نفسه بالدبابة الإسرائيلية، كان أحد الزعماء العرب يستشير الساحر جالساً هنا كالطفل في حضرته" (السمان، ٢٠٠٢، ص ٣٢٥/٣٢٦).

هكذا تنقد الكاتبة - التي تماهى صوتها مع صوت نسيم - زعماء العرب الذين يجعلون الشباب يفجرون أنفسهم للدفاع عن الوطن وكرامته وهم منشغلون عن قضايا أوطانهم للأعمال التافهة و مستغرقون في الأوهام والأحلام الخرافية بعيداً عن هموم أبناء الوطن العربي. وترسم لنا عادة السمان بتفصيل في الرواية المذكورة مركزية التفكير الخرافي في حياة الإنسان الثري العربي الساكن في أوروبا المتمثل في أمثال "رغيد زهران" و"شيخ صخر الغنمالي" وغيرهم، الذين يلجئون إلى المنجمين لأسباب متعددة: تحقيق المشاريع المستقبلية، شفاء الأمراض، درء عداوة الأعداء وغيرهم..

فيلاحظ المتلقي في المشاهد المختلفة من الرواية مدى إيمان الثري "رغيد زهران" بالخرافة والسحر، حيث يصبح كالطفل أمام هيبة الساحر كما يروي لنا الراوي كلي المعرفة في الصفحات المتعددة:

"يجلس رغيد في حضرة الساحر كالطفل... إنه يؤمن بالأرقام والمنطق والكمبيوتر الذي يستخدم عشرات منها في مكاتبه، يؤمن بالفيديو وجداول اللوغاريتمات وبالتلكس والرشوة المادية والنسائية ولكنه مازال يرتاح لتأييد الساحر" (المصدر نفسه، ص ١٠٥).

ويتراءى لنا في العبارة التالية مدى خشوع "رغيد زهران" أمام المنجم: "أرجوك يا سيدي) عبارة لا يقولها إلا للساحر.. وحتى في لحظات لقائه والملوك والأمراء والثوار والمرترقة ورؤساء

الدول لم يكن في حاجة إلى استعمالها ... وحده ساحره يخيفه ويؤمن بمقدرته" (المصدر نفسه، ص ١٠٥).

هكذا نرى أن ثرياً متكبراً لا يخشع لأي فرد في العالم، يركع أمام الساحر وهيبته. فترجع عادة السمان أسباب لجوء الإنسان الثري الأثني مثل رغيد زهران إلى الخرافة، إلى الموارث الفكرية والثقافية التي ورثها من الأسرة والمجتمع العربي منذ طفولته:

"والدته كانت تذهب إلى البصّار (المنجم) في مسقط رأسه بتلك المدينة العربية الجميلة حجرية الأبنية .. ووالده كان يذهب إليه خلسة ... والوزراء ورجال الحكم كانوا يتسللون إلى بيته تحت جناح الظلام في ذلك الزمن الغابر... " (المصدر نفسه، ص ١٠٥).

على هذا النحو تظهر لنا الكاتبة كيف تصبح الخرافة تراثاً سلفياً للإنسان العربي، حيث يؤمن بالقيم والاعتقادات الخرافية التي آمن بها أسلافه دون أن يحاول إعادة النظر فيها. فإذا كان الآباء يحتمون إلى الساحرين والمنجمين في المدن العربية حجرية الأبنية، فإن الأبناء يلجئون إلى السحر والتنجم وهم يعيشون في قلب الحضارة الإنسانية الحديثة في قصور ذهبية الأبنية.

فيتراءى للمتلقي من خلال المشاهد التي تمثل استغراق العرب في الأوهام والتفسيرات الخرافية في جنيف، أن عقلية الإنسان العربي لم تكن قادرة على مساندة الحضارة الإنسانية الحديثة، حيث لم يقطع الإنسان العربي ارتباطه الذهني والنفسي بسلفه الذي سبقه منذ مئات السنين. فالعصر الحديث يتطلب تركيباً ذهنياً ونفسياً وفكرياً في الفرد، يختلف تماماً بالعمق والشمول والتنوعية والديناميكية والكفاءة عن متطلبات العصور السابقة حتى عن القرن الماضي (بدران والخماش، ١٩٨٨، ص ٧، بتصرف).

لذا نعايش في رواية "ليلة المليار" من خلال علاقة رغيد زهران مع الساحر وطفان ذروة تخلف العقلية العربية التي لم تواكب تقدم عصرها. فنرى كيف يجارب رغيد زهران بسلاح السحر أعداءه الوهميين الذين يخلقهم لنفسه:

"يتمنى لو يعرف اسم قاتله.. طالما استحلل الشيخ وطفان ليقراً في كرتة الزجاجية الشفافة اسمه .. طالما أحضر له الزنجار والزرنبيخ الأخضر والزنجفر والكافور والسنبل البغدادي وقلب ديك أزرق ولبان ذكر وبزر ريجان وبخوراً ليكتب له اسم قاتله". (السمان، ٢٠٠٢، ص ٢٧)

ويلجأ رغيد إلى السحر حتى يطمئن على مصير طموحاته المستقبلية. لذلك يطلب من الساحر أن يعقد لسان شيخ هلال الغنمالي الذي يعارض مساهمة أخيه في تعمير المطار الذي يريد إنجازه

رغيد: "أرجوك أن تعقد لي لسان شقيقه التوأم هلال.. إنه يريد بي شراً ويجول بين الناس والخير... أريد تعمير مطار لهم وهو يريدهم على الدواب.. أرجوك يا سيدي الشيخ". (المصدر نفسه، ص ١٠٥)

إن عادة السمان طرحت في رواياتها الأخرى موضوع لجوء أصحاب السلطة والنفوذ إلى الخرافة المتمثلة في الساحر والبصارة. ففي رواية "بيروت ٧٥" نجد "فاضل بك السلموني" - من أصحاب القدرة والنائب في البرلمان اللبناني - محتتماً إلى فائزة البصارة حتى يطمئن على طموحاته في المستقبل. فترسم لنا الكاتبة مدى خشوع البيك أمام البصارة ببراعة:

"خلال دقيقتين كان البيك في الغرفة الصغيرة التي لا نوافذ فيها وأثاث قليل جداً كأن الأرواح والجان لا تحب الأثاث... تأملته بعينين ثاقبتين فخفض نظره احتراماً لقواها الخفية ولحضور كائنتها السرية، وركز نظراته القلقة على مسند المقعد نصف المهترئ، ودس يده في أحد الثقوب وبدأ يوسعه بحركة عصبية" (السمان، ١٩٩٣، ص ٤٧).

وفي رواية "كوايس بيروت" تعرب خاتون البصارة عن استغرابها حين ترى الإقبال الكبير للرجال السياسة على السحر والتنجم: "أدهش خاتون أن الرجال أيضاً بدأوا يقبلون عليها، وأكثرهم من الرجال السياسية" (السمان، ٢٠٠٠، ص ١٥٤). يقول الدكتور "ندم منصور" عن سبب احتفاء السياسيين إلى المنجمين: "عندما يتذوق الإنسان مذاق السلطة يصبح هدفه الحفاظ على موقعه ويتحول هذا الأمر إلى هاجس لديه. وهذا ما يبرر لجوء الكثير من السياسيين والحكام إلى المنجمين" (منصوري، ٢٠٠٧، ص ١٨٥).

وترسم لنا عادة السمان في رواية "سهرة تنكزية للموتى" مركزية التفكير الخرافي في حياة العرب الذين يعيشون في قلب الحضارة الإنسانية، حيث يبحثون عن العرافات في الشرق والغرب على السواء. فيخبرنا الراوي بذهاب "دانا" - ابنة المليونير اللبناني - إلى العرافات الغريبات واللبنانيات، قائلاً:

"سنة ٢٠٠٠ السحرية كما يبدو لها الرقم... ومن يدري ما قد تقوله لها العرافة خاتون بخصوص ذلك.. لقد زارت العشرات من عرافات باريس وما أكثرهن، بدءاً بمدام سولويل منذ أعوام، ومروراً بمدام تيسيه قبل أسابيع، واليوم جاء دور خاتون اللبنانية التي قيل لها أن لا أحد مثلها يسير حقاً حجب الغيب" (السمان، ٢٠٠٣، ص ١٣/١٢).

ويطلعنا الراوي من جديد على لجوء الإنسان العربي الذي لا يعيش في الظروف القهرية، المتمثل في "سليمي" - أم دانا - قاتلا: "سليمي مدمنة عرّافات منذ أيام الجامعة [...] إن العرّافات من الأشياء القليلة المشتركة بين سليمي وابنتها دانا ولم تتركها عرّافة في باريس إلا وزارتها ناهيك عن الصالون السنوي للنبوءات" (السمان، ٢٠٠٣، ص ٢٥٦).

ومما تذكّرنا به الكاتبة في هذه العبارة هو أن الأسلاف هم الذين يورثون الأجيال الذهنية الخرافية في الوطن العربي، الأمر الذي يجعل التفكير الخرافي ينتشر في المجتمع العربي من جيل إلى آخر. وتؤكد غادة السمان على وراثة التفكير الخرافي بين الأجيال العربي، في المقطع القادم من الرواية، حيث تخبرنا "دانا" بذهاب أمها وأبيها إلى العرّافات في بيروت بقولها:

"ليني أنوي استشارة تلك العرّافة الشهيرة خاتون التي حدثني عنها أمي وقالت إنها تنبأت بالحرب اللبنانية لأبي، مدّعية أن بصيرتها تزداد توهجاً كلما ازداد بصرها انطفاءً وأنها كانت تستشيرها في كل زيارة لها مع أبي تقيم فيها اللوائح للأصدقاء" (السمان، ٢٠٠٣، ص ١٢).

على هذا النحو ترسم لنا غادة السمان في رواياتها العلاقة الوطيدة بين الذهنية الخرافية والقيم المتبقية لدى الأجيال المختلفة. لذا يلجأ أصحاب القدرة والثروة والجاه، والذين لا يعانون القهر الاقتصادي والاجتماعي إلى ممارسات الخرافية بسبب تمسكهم بالقيم التي آمن بها الآباء والأجداد.

الخاتمة

مما شاهدناه في روايات غادة السمان أن العقلية العلمية التي تفسر الظواهر بأسباب موضوعية، والتي تخضع الوقائع للدرس والتجريب هي سيئة التجذر في الحقل والشخصية العربية. فنراى لنا أن الشخصيات الروائية أقيمت على الحلول والتفسيرات الخرافية بحكم القهر الاقتصادي والاجتماعي عليها، وبتأثير الموارث الثقافية والفكرية المتواجدة في عقليتها في الظروف غير القهرية.

فبما أن الضغوط المتزايدة للأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية القائمة في الوطن العربي يكون من شأنها تخفيف "علمية" الإنسان العربي، فلاحظنا أنه احتفى بالخرافة في روايات غادة السمان ليسيطر على معاناته ومأساته في الحياة مهما كانت سيطرته سيطرة خرافية ووهمية.

وانطلاقاً من أن واحدة من السمات البارزة للإنسان العربي المعاصر هي ارتباطه الذهني والنفسي بسلفه الذي سبقه منذ مئات السنين، فترسم لنا عادة السمان في رواياتها شخصيات تلجأ إلى الحلول الخرافية بسبب سيطرة الرواسب الفكرية والاعتقادية على عقليتها دون أن تحاول أن تعيد النظر فيها.

ومما يسجل للكاتبه عادة السمان أنها أظهرت في رواياتها مركزية التفكير الخرافي في حياة الإنسان العربي. فحاولت الكاتبة أن ترسم العقلية العربية الخرافية من جهة، وأن تنقد الأسباب الحقيقية التي تكمن وراء هذه العقلية من جهة أخرى؛ الأمر الذي يساهم في تشكيل العقلية العلمية لدى المتلقي العربي.

المصادر و المراجع

- السمان، غادة، بيروت ٧٥، منشورات غادة السمان، الطبعة السادسة، ١٩٩٣.
- السمان، غادة، كوايس بيروت، بيروت، منشورات غادة السمان، الطبعة الثامنة، مارس ٢٠٠٠.
- السمان، غادة، ليلة المليار، بيروت، منشورات غادة السمان، الطبعة الثالثة، ٢٠٠٢.
- السمان، غادة، الرواية المستحيلة - فسيفساء دمشقية -، بيروت، منشورات غادة السمان، الطبعة الثالثة، ٢٠٠٤.
- السمان، غادة، سهرة تنكرية للموتى، بيروت، منشورات غادة السمان، الطبعة الأولى، ٢٠٠٣.
- الأرنؤوط، عبد اللطيف، غادة السمان: رحلة في أعمالها غير الكاملة، دمشق، مطابع ألف باء، ط ١، ١٩٩٣.
- الخماش، سلوى وإبراهيم بدران، دراسات في العقلية العربية الخرافية، بيروت، دار الحقيقة، ط ٣، ١٩٨٨.
- السمان، غادة، القبيلة تستجوب القتيلة، بيروت، منشورات غادة السمان، ط ٣، ٢٠٠٢.
- النابلسي، شاكر، فض ذاكرة امرأة، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط ١، ١٩٩٠.
- حجازي، مصطفى، التخلف الاجتماعي: مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور، بيروت، معهد الإنماء العربي، ط ٤، ١٩٨٦.
- حمود، ماجدة، جماليات المغامرة الروائية لدى غادة السمان، بيروت، دار الطليعة، ط ١، ٢٠٠٥.
- زكريا، فواد، التفكير العلمي، القاهرة، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، مهرجان القراءة ٩٦، مكتبة الأسرة، د. ط، ١٩٩٦.
- شعبان، بثينة، ١٠٠ عام من الرواية النسوية (١٨٩٩-١٩٩٩)، بيروت، دار الآداب، ط ١، ١٩٩٩.
- عيسوي، عبد الرحمن، سيكولوجية الخرافة، الإسكندرية، منشأة المعارف، ١٩٨٢/١٩٨٣، د. ط.
- منصور، نديم، سوسولوجيا التنجيم، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط ١، ٢٠٠٧.
- وطفا، علي أسعد، الجمود والتجديد في العقلية العربية، دمشق، منشورات وزارة الثقافة السورية، ٢٠٠٧.

بازتاب جلوه های خرافات در رمان های «غادة السمان»

حجت رسولی^۱، سمیه آقاجانی یزدآبادی^۲

چکیده

این پژوهش در پی نشان دادن بازتاب جلوه های خرافات در رمان های "غادة السمان" است و ریشه های این پدیده را بررسی خواهد کند. رمان های بررسی شده پژوهش، عبارت اند از: "بیروت ۷۵"، "کوایس بیروت"، "ليلة المليار"، "الرواية المستحيلة - فسيفساء دمشقية -"، و "سهرة تنكرية للموتى". پژوهش به دو بخش، تقسیم شده است: "خرافات در سایه سرکوب" و "خرافات بیرون از چنبره سرکوب". نتیجه این پژوهش این است که غادة السمان در نوشته هایش نقش باورهای خرافی در دو طبقه فرودست و فرادست جامعه عرب را نشان می دهد، تا این گونه با شیوه ای هنری به ما نشان دهد تا چه اندازه باورها و ارزش های خرافی در زندگی عرب نقش دارد، به گونه ای که قشرهای مختلف اجتماعی، چه بی سواد و چه تحصیل کرده به راه حل های خرافی رو می آورند.

واژگان کلیدی: خرافات، رمان عربی، جامعه عربی، غادة السمان

۱. استادیار دانشگاه شهید بهشتی

۲. دانشجوی دکترا دانشگاه دمشق

